جامعة الانبار/كلية الاداب

المرحلة: الاولى

الكورس: الثاني

قسم: اللغة العربية

المادة: تاريخ

استاذ المادة: وليد غازي المشهداني

الفصل الثاني

عصر الرسالة

المرحلة المكّيَّة

محمَّد قبل البعثة

شهد عام ٥٧١ للميلاد حادثين مستفيضي الشهرة في الجزيرة العربية، هما غزو الأحباش لمكَّة بهدف هدم الكعبة، ومولد النبي محمَّد ﷺ، ومع فشل حملة أبرهة تفرَّد الحدث الثاني في التأثير على أوضاع الجزيرة العربية وسكَّانها.

وُلد النبي محمَّد ﷺ لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوَّل، العشرين من شهر نيسان عام ٥٧١م، وهي السنة المعروفة بعام الفيل[١]، من أبوين فقيرين في مالهما غنيين في حسبهما وشرفهما. ينتمي أحدهما، وهو: عبد اللَّه، إلى عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب. والأخرى، هي: آمنة بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مرة، بن كعب[٢].

توفي والده وهو في بطن أمه، فكفله عند ولادته جده عبد المطلب، ثم توفيت والدته وهو في السادسة من عمره، كما توفي جده بعد مرور سنتين، فتولَّى أمره عمه أبو طالب[٣].

قضى أيامه الأولى فقيراً، واضطر إلى العمل وهو صغير، مع أبناء عمه، فكان يرعى الغنم. ولما شبَّ ضرب في الأرض متاجراً بمال غيره، فتاجر لحساب خديجة بنت خويلد، إحدى شريفات مكة.

اتَّصف بالمروءة والخلق الحسن والحسب الكريم، فكان خير قومه جواراً،

---

(١) ابن سعد: طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٠٠ ـ ١٠١. ابن هشام: ج ١ ص ١٨١.

(٢) ابن هشام: المصدر نفسه ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٠ ـ ١٨٢، ١٩٥، ٢٠٤.

وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحشاء التي تدنس الرجال حتى لُقِّب بـ «الأمين».

كانت نقطة التحوُّل الأولى في حياته قبل البعثة زواجه من خديجة بنت خويلد[1]. وكان الدافع بهذه السيدة إلى الإقدام على هذه الخطوة هي أمانته، وصدقه، وإخلاصه، وحسن أخلاقه، التي لمستها وشعرت بها نتيجة تعاملها التجاري معه، فلم يعد بحاجة إلى طلب الرزق، كما لم يعد يخشى الفقر. وأتاحت له حياته الجديدة أن ينصرف إلى التأمل والتفكير في حياة قومه، وفي الكون من حوله. وبدأ يميل إلى الصمت، والسكون، والابتعاد عن مخالطة الناس. وقد اتَّسمت حياته في هذه المرحلة بالخروج على عادات مجتمعه في كل جانب من جوانب حياته. فنشأ في بوتقة الشرك إلَّا أنها لم تصهره، فلم يؤمن بعبادة الأصنام، بل كان كارهاً لها كل حياته.

كانت الهوة عميقة بين بيته الطاهر، الذي عاش فيه، وبين عالمه الواسع من حوله. فكان هناك تناقض بين بيته وبين عالمه، جعل حياته تتأثَّر، وتجنح نحو الاعتزال والتأمل.

كانت الفرصة الأولى في اختبار مكانة محمَّد في مجتمعه عندما أعادت قريش بناء الكعبة[2] إذ أنه حقن الدماء وحكم بالعدل، وأنصف بين القوم، وبذلك انطلق ليتخذ له مكاناً مرموقاً باعتراف قومه بأنه من أصحاب العدل ومن دعاة الرحمة والسَّلام.

البعثة

ازداد شعور محمَّد بالعزلة، عندما بلغ سن الأربعين. فكان ينصرف إلى غار حراء، القريب من مكَّة، للتحنُّث، والانغماس في التفكير والتأمل، بعيداً عن صخب الحياة في مكة. وإنما الباعث على هذا، اشتداد وحشته من سوء أوضاع الناس، والهرب منها إلى الأُنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها[3].

ولما أراد الله كرامته ورحمة العباد به، وكان قد هيأه لتلقي الرسالة والوحي، كانت الرؤيا الصادقة أول ما بدىء به، وهي خطوة تمهيدية لاستقبال الكلام الإلٰهي، ثم نزل الوحي عليه.

وكان أول من آمن بدعوته زوجته خديجة، ثم أخذت الدعوة تنتشر ببطء،

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ ١ ص ١٣١.

(٢) انظر تفاصيل الحادثة عند ابن هشام: جـ ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٨.

(٣) رضا، الشيخ رشيد: تفسير القرآن الحكيم جـ ١١ ص ١٩٣.

فدخل في الدين الجديد أفراد قلائل في مكَّة، منهم علي بن أَبي طالب، وكان لا يزال صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره[1]، وأَبو بكر الصدِّيق، وزيد بن حارثة، مولاه ﷺ، وعثمان بن عفَّان، والزبير بن العوَّام، وعبد الرَّحمن بن عوف، وسعد بن أَبي وقَّاص وغيرهم[2]، كما انتشرت الدعوة بين النساء.

ويلاحظ أن الذين آمنوا به ينتمون إِلى مختلف الطبقات والأعمار، والكثير منهم من الفقراء والمستضعفين. إذ أنهم أقبلوا على الدِّين بشغف نظراً لمبادئه القريبة من الفطرة البشرية، وقد بعثت الأمل في نفوسهم، لأنها تدعو إِلى المساواة، وإِلى منح الأرقاء الحقَّ في التحرر، وإِلى مساعدة المحتاجين.

ولمعرفة ردود الفعل الأولية للدعوة الإِسلامية، يمكن تقسيم الرعيل الأول من المسلمين إِلى ثلاث فئات من حيث المكانة الاجتماعية.

تتضمَّن الفئة الأولى فتيان العائلات الكبيرة، التي تتمتع باحترام واسع في المجتمع المكي، ويمثِّل هذه الفئة خير تمثيل: خالد بن سعيد بن العاص. وهذه العائلات هي الأكثر تأثيراً في المجتمع بحكم مكانة العشائر التي تنتمي إليها. والجدير بالذكر أن الأشخاص الذين حملوا لواء المعارضة ضد النبي محمَّد ﷺ ينتمون إِلى هذه الفئة.

وتتضمَّن الفئة الثانية فتيان العائلات الأخرى، التي تنتمي إِلى العشائر الضعيفة نسبياً، كبني الحارث بن فهر، وبني عمير، ولا يوجد فارق كبير بين الفئتين.

وتتضمَّن الفئة الثالثة الأشخاص الذين لا يرتبطون بأي من العشائر في المجتمع المكي. إنهم خارج دائرة النظام العشائري، ويلحقون اسمياً ببعض العشائر. ويندرج ضمن هذه الفئة ما يسمى بالمستضعفين، كصهيب الرومي، وعمَّار بن ياسر، وبلال الحبشي.

ظلت الدعوة سرية مدة ثلاث سنوات، أمر الله نبيه بعدها أن يجهر بها، فعاداه قومه، ووقفوا في وجهه، وعذَّبوا من أسلم من أتباعه، كما تعرَّض هو نفسه للمضايقة والأذى. والواضح أن مبادىء الدعوة الإِسلامية في مكة، أقلقت القريشيين حتى باتوا في اضطراب دائم، فخشوا على مصالحهم التجارية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، والاجتماعية.

---

(١) ابن هشام: ج ١ ص ٢٨٤.

(٢) انظر فيما يتعلق بإِسلام الرعيل الأول: المصدر نفسه ص ٢٨٧ ـ ٢٩٤.

ولما رأى النبي محمَّد ﷺ ما يصيب أتباعه من العذاب، في الوقت الذي لا يستطيع فيه مساعدتهم، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، خشية الفتنة، فهاجر ثلاثة وثمانون من المسلمين إلى بلاد النجاشي في السنة السابعة من البعثة، ومعهم ثماني عشرة امرأة[١].

وحدث أن قوي ساعد المسلمين في مكَّة، واعتز الإسلام باعتناق عمر بن الخطَّاب الدِّين الجديد[٢]. فقد كان عمر رجلاً شديد المراس، وجاء إسلامه في الوقت المناسب، وأبدى في خدمة الإسلام الحمية نفسها التي عارضه بها.

ولامت قريش بني هاشم لعدم ردعهم محمَّداً، فاتفق أشرافها وأولو الأمر فيها على حصارهم ومقاطعتهم اقتصادياً، واجتماعياً. استمرت المقاطعة أكثر من سنتين[٣]، لم تؤد إلى نتيجة إيجابية، انطلق بعدها النبي محمَّد ﷺ إلى دعوة القبائل الوافدة إلى مكَّة في أيام الحج، بمعنويات مرتفعة.

هجرة النبي محمَّد ﷺ إلى المدينة

عندما جاء الوقت الذي وُجدت فيه التربة الصالحة لنمو المبادىء الإسلامية، كان المجتمع في يثرب يمر في حالة من التفكُّك، تمزقه نار الحرب، ولم تتح له ظروف أبنائه أن يتحدوا، لذلك كان بحاجة ماسَّة إلى تغيير جذري في مبادئه ومفاهيمه، وأُسس تركيبه، وقواعد السلوك فيه، وكان يتطلع إلى هذا التغيير منذ زمن، حتى وجده في مبادىء الدعوة الإسلامية، فاستجاب لنداء محمَّد من دون تردد.

ولا شك أن اختلاف العناصر المكونة لهذا المجتمع من عرب منقسمين على أنفسهم بين أوس وخزرج، ويشكِّلون العنصر الأكثر عدداً، ويهود ينتمون إلى ثلاث قبائل كبرى هي بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وقبائل أخرى أقل شأناً، كان عاملاً مساعداً في انتشار المبادىء الإسلامية، وبخاصة أن العنصر اليهودي عمد، على عادته في كل زمان ومكان، إلى اتباع سياسة التفرقة بين العرب لتقوية قبضته.

وانتشر الإسلام في يثرب بين الأوس والخزرج بعد بيعتي العقبة[٤]. ونصح

---

(١) انظر فيما يتعلَّق بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، ابن هشام: جـ ٢ ص ٦٩ ـ ٧٦.

(٢) الطبري: جـ ٢ ص ٣٣٥.

(٣) انظر فيما يتعلَّق بالمقاطعة، ابن هشام: جـ ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٣، ١٢٢ ـ ١٢٥.

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٦ ـ ٢١٠.

محمَّد أتباعه بالهجرة إليها، ثم أذن له ربه بالهجرة، فخرج إليها بصحبة أبي بكر الصدِّيق. ولما وصل إليها يوم الإثنين (لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول/ ٢٥ من شهر أيلول عام ٦٢٢م)، دخلها وسط ابتهاج المسلمين[١]، واستُبدل اسم يثرب فسميت بـ «مدينة رسول الله أو المدينة المنوَّرة».

شكَّلت الهجرة إلى يثرب فاصلاً بين عهدين تميَّز كل منهما بمميزات من التشريع تناسبت مع المرحلة التي مرَّت بها الدعوة. ولما انتهى العهد المكي، كانت الهجرة فاتحة مرحلة أخرى ذات طابع خاص ومميزات جديدة، في العمل، والتنظيم، والتشريع، والتخطيط بلا تغيير في الهدف.

خصائص الدعوة المكية

عالج القرآن الكريم في سوره المكية قضية العقيدة، لأنها القضية الأساسية في الدِّين الجديد، والتي تتمثَّل في قاعدتها الرئيسية، الألوهية، والعبودية، وما بينهما من علاقة، إذ لم يكن من مجال لترك الوثنية على حالها، وهي تزداد يوماً عن يوم، فلا بد من المقاومة الشديدة لعبادة الأصنام وتعدُّد الأرباب. ونزلت الآيات تقاوم الوثنية وتحارب منهجها، وتهاجم تعدد الأرباب، ثم تُثبِّت بعد ذلك التوحيد المطلق لله الخالق الواحد القهَّار.

وتضمَّنت الدعوة في مكة عقيدة البعث والجزاء. فالبعث إعادة لحياة كانت، والجزاء هو النتيجة الحتمية والمنطقية للحياة الأولى. وقد أنكر بعض المكيين وجود يوم يبعث الله تعالى فيه العباد أحياء من جديد، فأثبت القرآن وجود اليوم الآخر، حيث يُجزى كل فرد بما عمل، وأبطل نظريتهم عن الحياة والموت.

وعالج القرآن المكي قضية العبادة بوصفها عملية تربط المخلوق بالخالق، وتوجهه نحو الخير.

وتطرَّق القرآن المكي، خلال معالجته قضيَّة العقيدة، إلى القِيَم والخصال التي تقرِّب من الله، ويتمحور معظمها حول الأخلاق، ومعاملة الناس بعضهم بعضاً، والمساواة بينهم، والعفو عند المقدرة، والإصلاح، والصبر، والتغلب على البغي والعدوان.

وقد جاهد النبي محمَّد ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة من أجل زرع هذه العقيدة في التربة المكيَّة وإخراج المفاهيم الفاسدة من عقول الناس.

---

(١) ابن سعد: جـ ١ ص ٢٣٤. ابن هشام: جـ ٢ ص ٢٣٦. الطبري: جـ ٢ ص ٣٨٨، ٣٩٢. السهيلي: جـ ٢ ص ٢٤٥.

المرحلة المدينية

أُسس الدولة الإسلامية

بناء المسجد

تبدأ المرحلة المدينية من حياة النبي محمَّد ﷺ بوصوله إلى قباء في واحة المدينة. وكانت الهجرة تعني نشأة أول دار للإسلام، وهي إيذان بظهور الدولة الإسلامية، ولذا كان على النبي أن يحقِّق الأمن والاستقرار في الداخل ليتفرَّغ لبناء دولة الإسلام. وكان من أوائل أعماله بناء مسجد للمسلمين والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وتنظيم الوضع الداخلي من الناحية السياسية.

وكان المسجد، في بادىء الأمر، بسيطاً، وهو عبارة عن صحن فسيح يجاور المنزل الذي أقام فيه، وقبلته إلى بيت المقدس. ونظراً لشدة تعرض المسلمين لحرارة الشمس أقام لهم النبي ظلة (سقف) من جذوع النخل[١].

ظل المسلمون منذ أن هاجر النبي إلى المدينة يولون وجوههم في الصلاة شطر بيت المقدس طوال ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم حُوِّلت القبلة إلى الكعبة قبل معركة بدر بشهرين[٢]. فأقام النبي ظلة جديدة إلى الجانب القبلي من المسجد، فأصبح للمسجد ظلتان، ومن أجل ذلك سُمي بمسجد القبلتين[٣].

وتُعدُّ إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي والكيان السياسي للدولة المسلمة بوصفه المقر الرسمي لها.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

أضحى للنبي محمَّد ﷺ عند قدومه إلى المدينة أتباعٌ أقوياء، كما أضحت له مكانة سياسية بين أتباعه. وقد سمى أتباعه المكيين بالمهاجرين وأتباعه من أهل المدينة بالأنصار، ثم عمل على توحيدهم برباط الإسلام.

بدأ بإصلاح ما بين الأوس والخزرج، فأزال من نفوسهم ما كان قد رسب فيها من العداوة القديمة، ثم وحَّد بينهم تحت اسم الأنصار الذين نصروه وأيَّدوا الدعوة الإسلامية. ثم اتجه إلى ربط المهاجرين والأنصار برباط الأخوة ليحل جانباً من

---

(١) السمهودي، أبو الحسن بن عبد الله: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ٢٣٢، ٢٣٩.

(٢) انظر نص الآية رقم ١٤٤ من سورة البقرة.

(٣) ابن سعد: جـ ١ ص ٢٤٢. السمهودي: جـ ١ ص ٢٥٨.

مشكلات المهاجرين الاقتصادية، فآخى بين المسلمين جميعاً، على الحق والمؤاساة، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الموت، بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية في ذلك أقوى من أثر قرابة الرحم[1].

وتُعدُّ المؤاخاة الأساس الثاني الذي اعتمده النبي محمَّد ﷺ في سبيل إنشاء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، لأن أية دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلَّا على أساس وحدة الأمة وتساندها[2].

الوثيقة الدستورية (الصحيفة)

تعدُّ كتابة الوثيقة بين المسلمين وغيرهم ممن يتكوَّن منهم المجتمع المديني، من أهم ما قام به النبي محمَّد ﷺ فيما يتعلَّق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة. فقد انهمك، خلال الأشهر الأولى من قدومه إلى المدينة، بإيجاد نظام جديد يوحِّد أهل المدينة بمختلف طوائفهم من مسلمين ويهود ومشركين. فأوجد صيغة للعلاقات بينهم وبين السلطة التي أراد تأسيسها، وجعلها الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية فيما بعد بمقوماتها التنظيمية والإدارية والسياسية والدينية، فربط أهل المدينة برباط موحد كفل لهم حرية العقيدة والعمل ضمن دائرة معينة. وقد أورد ابن إسحاق نص هذه الوثيقة من دون أن يذكر شيئاً عن الطريقة التي وصلت بها إليه[3].

ويمكن تقسيم نص الوثيقة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: يحدد العلاقة بين المؤمنين، حيث استطاع النبي أن يوحِّد جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وأن يجعل منهم أمَّة واحدة تربطهم رابطة الإسلام.

الثاني: يحدِّد العلاقة مع المشركين. والواقع أن الوثيقة لم تفصِّل حقوق هؤلاء نظراً لقلة عددهم، إنما أعطتهم الامتيازات نفسها التي منحتها لباقي الطوائف.

الثالث: يحدد العلاقة مع اليهود، وكان عهداً على الموادعة والمسالمة وحرية التصرف ضمن حدود المصلحة العامة مع التسليم بالسلطة العليا لمحمَّد، والتعهد بالدفاع عن المدينة ضد قريش، وعدم مناصرة أي مهاجم لها، أو عقد أي حلف مع المشركين المحاربين دون إذن منه، مع احتفاظهم بتنظيم شؤونهم الداخلية.

---

(١) ابن سعد: جـ ١ ص ٢٣٨. ابن كثير، الحافظ الدمشقي: البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩.

(٢) البوطي، محمَّد سعيد رمضان: فقه السيرة النبوية ص ٢١٩.

(٣) ابن هشام: جـ ٢ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

وبعد الانتهاء من كتابة الوثيقة وافق الجميع على مضمونها، ووقّعها كل طرف، وتعاهدوا على العمل بتنفيذ مضمونها. وبذلك يكون النبي محمَّد ﷺ قد حصر بيده السلطتين الدينية والقضائية على المسلمين، والسلطتين السياسية والدفاعية على أهل المدينة جميعاً، وجعل من نفسه الحكم والمرجع لحل كافة النزاعات التي يمكن أن تنشأ من جراء تطبيق بنود الصحيفة. وبهذا العمل التنظيمي يكون قد تفرَّغ للأمور الخارجية.

الغزوات والسرايا الأولى[1]

كانت هجرة النبي محمَّد ﷺ إلى المدينة تحدياً لقريش، وقد خشي التجار والأغنياء في مكَّة أَن يوجه إليهم جيشاً من أتباعه يغير على قوافلهم التجارية أثناء مرورها بمنعرج المدينة ليعوِّضوا بعض ما فقدوه أَو تركوه بعد هجرتهم، ويشكّل هذا العمل إذا ما تحقَّق نكبة كبيرة تصيب تجارتهم، لذلك طلبوا من كبار تجار المدينة وأغنيائها من اليهود الحماية حين تمر قوافلهم في صحراء المدينة في طريقها إلى بلاد الشام أَو العودة منها.

أما النبي محمَّد ﷺ فراح يهيىء رجاله للكفاح بعد أن أذن الله له بالقتال دفاعاً عن النَّفس والعقيدة[2]، ويُعدُّهم لخوض المعارك بتدريبهم ورفع معنوياتهم فلا يتخاذلون عند اللقاء. ثم تسلَّم زمام المبادرة وبدأ يتحدى قريشاً بمهاجمة قوافلها التجارية بوصفها مصدر حياة القريشيين، وأساس قوتهم، كما استهدف عمله هذا إنذار أعداء الدولة الناشئة من غير قريش بأن المسلمين قادرون على الرد ومستعدون للتصدي لأي عدوان.

ونفَّذ المسلمون أربع غزوات وثلاث سرايا خلال الثمانية عشر شهراً الأولى بعد الهجرة[3]، أُرسلت ست منها لمهاجمة القوافل التجارية، كانت نتائجها ضئيلة نسبياً، إنما جذبت الأعراب المجاورين للمدينة، فوادعوا المسلمين، وكانت مساعدة هؤلاء ضرورية لنجاح حملاتهم العسكرية.

حصلت المواجهة المسلَّحة الأولى بين سرية إسلامية مؤلَّفة من تسعة أشخاص بقيادة عبد اللَّه بن جحش، وقافلة تجارية مكية يرافقها أربعة أشخاص بقيادة

---

(١) الغزوة: هي ما خرج فيها النبي مع المقاتلين. والسرية، أَو البعث: ما لم يخرج فيها بنفسه، وقد يُطلق على السرية غزوة كما في غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل.

(٢) انظر الآيتين ٣٩ ـ ٤٠ من سورة الحج. (٣) ابن هشام: ج ٣ ص ١٨ ـ ٢٥.

عمرو بن الحضرمي، في نخلة، نتج عنها مقتل قائد القافلة وأسر اثنين وفرار الرابع[1].

والواقع أن النبي محمَّد ﷺ أرسل عبد اللَّه بن جحش ليترصد القوافل التجارية ولم يطلب منه مهاجمتها، لأن خروجه كان في شهر رجب وهو أحد الأشهر الحرم، لكن ابن جحش اجتهد في تقدير الموقف، فهاجم القافلة، وعاد إلى المدينة، فرفض النبي توزيع الغنيمة، ولم يقبل نصيبه من الخمس، حتى نزلت آية قرآنية برَّرت تصرُّف ابن جحش وأباحت مثل هذا العمل بعد تعدي أهل مكة على المسلمين[2].

غزوة بدر

وقعت الغزوات والسرايا الأولى تحت سمع وبصر القريشيين الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن وضع حدٍ لها، إنما استغلوا حادثة سرية نخلة التي وقعت في الشهر الحرام لإثارة العرب ضد المسلمين، ومهاجمة المناطق المجاورة للمدينة، وهي الشرارة التي أشعلت الحرب بين المسلمين وقريش.

بدأ أهل مكة يشدِّدون حراستهم على قوافلهم التجارية، وعلم النبي، خلال العام الثاني من الهجرة، بقدوم قافلة كبيرة لقريش من الشام في طريقها إلى مكة بقيادة أَبي سفيان بن حرب، فقرَّر أن يضع يده عليها، وانتدب أصحابه لذلك، واستطاع أن يجنِّد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، كانوا على درجة من الفقر بحيث لم يتمكَّنوا من توفير أكثر من سبعين بعيراً وجوادين لاستخدامهم في الحملة، خرج بهم من المدينة لثمان ليال مضت من شهر رمضان[3].

ويبدو أن أبا سفيان علم مبكراً بخروج المسلمين، فتصرَّف على محورين:

الأول: أرسل إلى مكة يستنفر أهلها ويطلب النجدة.

الثاني: غيَّر طريقه.

استجابت قريش لنداء أَبي سفيان، فأرسلت قوة عسكرية تضم تسعمائة وخمسين مقاتلاً بقيادة أَبي جهل. وتدل أهمية هذه القوة على أن أبا جهل أراد إلقاء الرعب في قلوب المسلمين ومنعهم من مهاجمة القوافل التجارية القريشية في المستقبل.

---

(١) ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٢ ـ ٢٥. ونخلة مكان بين المدينة ومكة.

(٢) انظر الآية: ٢١٧ من سورة البقرة.

(٣) ابن هشام: جـ ٣ ص ٣٢.

والتقى الطرفان عند وادي بدر الذي يقع على مسافة عشرين ميلاً جنوبي المدينة في (السابع عشر من شهر رمضان عام ٢هـ/ شهر آذار عام ٦٢٤م)، أسفر عن انتصار واضح للمسلمين، وخسرت قريش سبعين قتيلاً بينهم أبي جهل بالإضافة إلى سبعين أسيراً[١].

شكّل هذا الانتصار حجر الزاوية في التاريخ المبكر للإسلام. فقد كان أول اصطدام جدّي مسلّح بين المسلمين وقريش انتصر فيه المسلمون انتصاراً واضحاً على الرغم من قلّة عددهم وعتادهم. وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم الأسرى والغنائم. وقَتَل النبي من هؤلاء الأسرى من كان شديد الأذى والاضطهاد للمسلمين في مكة، في حين أطلق سراح الباقي لقاء الفدية. ونجا أبو سفيان، وعاد إلى مكة لينذِر المسلمين بالانتقام[٢].

ذيول غزوة بدر

ـ أدرك النبي محمّد ﷺ أنه كُتب عليه القتال الشامل ضد قريش، لذلك كرّس معظم وقته لتقوية المسلمين.

ـ تأثّرت قريش كثيراً بفقدان معظم أشرافها. وتسلم أبو سفيان زمام الأمور في مكة، فاتخذ قراراً أولياً بمنع الحداد مدة من الزمن كي لا يتمتع المسلمون بثمرات النصر، كما نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المسلمين[٣].

ـ حقّق انتصار المسلمين الغاية الاقتصادية، وهي فرض حصار اقتصادي على العدو وإرباكه وإيقاع الاضطراب في صفوفه، بدليل إقدام قريش على تغيير طريق تجارتها إلى الشام، فلم تعد تخاطر بسلوك طريق الشمال، واتخذت طريقاً جديدة تمر عبر مضارب بني سُليم، فأنذر النبي هؤلاء بعدم مساعدة قريش، فرفضوا ذلك معتمدين على هيبتهم وسمعتهم الحربية غير مبالين بتنامي قوة المسلمين، فاضطر النبي إلى غزو مضاربهم، كما غزا قبيلة غطفان[٤].

ـ استفاقت قريش بعد عدة أسابيع، من صدمتها، فقاد أبو سفيان قوة عسكرية من مائتي مقاتل توجّه بها إلى المدينة ليعيد الثقة إلى القريشيين وليبرَّ بقسمه، فوصل إلى ضواحيها، واستضافه سيد بني النضير، وأمدّه بمعلومات وافية عن أوضاعها[٥].

---

(١) ابن هشام: جـ ٣ ص ٣٣ ـ ٤٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٦ ـ ٦١.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٥) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٣٦.

ويبدو أنه توصَّل خلال ذلك إلى عقد محالفة مع يهود بني قينقاع بفعل المصالح المشتركة، فنقض هؤلاء ما بينهم وبين المسلمين من كتاب الموادعة. والجدير بالذكر أن هؤلاء اليهود انزعجوا من انتصار المسلمين في الوقت الذي لم يكن بوسعهم مواجهتهم عسكرياً، لذلك أخذوا يدسُّون عليهم، ثم تحدَّوا النبي الذي صبر عليهم ولكن إلى حين.

والواقع أن النبي محمَّد ﷺ حرص على ألاّ يتعرَّض لليهود حتى لا يثير حفظيتهم فيتحرَّج موقفه، إلَّا أنه لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين تجاه تصرفاتهم العدائية ونقضهم مضمون الوثيقة، وقد توتر الجو السياسي بين الطرفين حتى وصل إلى درجة الصدام، وقد أشعله مضايقة اليهود لامرأة مسلمة في سوق بني قينقاع، وقَتْلهم رجلاً مسلماً، فجمع النبي أتباعه وألقى الحصار على حي بني قينقاع مدة خمسة عشر يوماً حتى استسلموا، فأخرجهم النبي من المدينة، فاستقروا في خيبر، وكان عددهم سبعمائة[1].

غزوة أُحد

تمدنا المصادر بمعلومات مستفيضة، حول معركة أُحُد، وهي الموقعة الحربية التي جرت عند جبل أُحُد في (منتصف شهر شوال عام ٣هـ/ شهر نيسان عام ٦٢٥م)، وتُجمع على أنها نتيجة للهزيمة التي لحقت بقريش في معركة بدر.

فقد قاد أبو سفيان ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والأحابيش وعرب كنانة وتهامة، وخرج بهم يريد المدينة مصطحباً معه الظعن لإثارة حماس المقاتلين، ومنعهم من الفرار؛ حتى بلغ أُحُد، وهو أقرب مكان من المدينة، وخيَّم في الوادي الواسع بعينين مقابل المدينة، وأعدَّ خطة عسكرية محكمة للقضاء على قوة المسلمين النامية مستعملاً كل الأساليب الممكنة، فكان على اتصال سري مع خصوم النبي في المدينة، كما لجأ إلى الشعر للتحريض على القتال[2].

وتلقَّى النبي رسالة من عمِّه العباس في مكة يعلمه فيها بخروج قريش، فعقد على الفور اجتماعاً مع أصحابه للتشاور. وانقسم المجتمعون إلى فريقين، فريق رأى الخروج من المدينة للقاء العدو، وهم الشباب المتحمِّس للقتال، ومن لم يشهد بدراً، وقد شكَّلوا الأكثرية العددية، وفريق آثر البقاء في المدينة للاستفادة من

(١) ابن هشام: ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ج ٣ ص ١٤٨.

الخلفاء الراشـــدون

استمر حكم الخلفاء الراشدين حوالي اربعين سنة في عام ١١ ـ ٤٠ هجرية، وكان حكم الخلفاء يرتكز على المساواة والاخاء الاسلامي ويستند الى الشورى، ويعتمد على الكتاب والسنة في استنباط الاحكام. والخلفاء الراشدون هم ابو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

١ ـ ابو بكر الصديق رضي الله عنه

هو عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر، عرف بالخصال الكريمة، وهو اول من اسلم من الرجال، واسلم على يديه كثير من الرجال كعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابي وقاص، وطلحه بن عبيد الله.

وكان ايمانه بالرسول شديدا، اذ كان رفيقه عندما هاجر الى المدينة، وقد نزل فيه قوله: «الا تنصروه فقد نصره الله، اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار»[١]. وسمي بالصديق لانه صدق رسول الله ﷺ بما اخبره الله.

ولما استقر الرسول في المدينة كان ابو بكر ساعده الايمن، وقد خصه الرسول ﷺ بمزايا لم يخص بها احدا سواه. وفي ذلك يقول ابن خلدون «كان يفاوض اصحابه ويشاورهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك ابا بكر بخصوصيات اخرى». فكان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها في عهد كسرى وقيصر والنجاشي ليسمون ابا بكر وزيره. وقال فيه الرسول ﷺ في آخر خطبة له «.... اني لا اعلم احدا كان افضل عندي في الصحبة يدا منه»[٢]. كان ابو بكر تاجرا، ومن سراة مكة في الجاهلية وانفق جميع ماله في نشر الاسلام.

استمرت خلافة ابي بكر من سنة ١١ ـ ١٣ هـ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م. وكانت مدتها سنتين وثلاثة اشهر.

خلافـة ابي بكـر :

لم يعلن الرسول ﷺ احدا لرئاسة المسلمين من بعده، حرصا على تطبيق قوله سبحانه وتعالى «وامرهم شورى بينهم». وقد فكر بتولية ابي بكر[٣]، وقيل ان الرسول ﷺ فكر بالعهد الى ابي بكر وروت عائشة رضي الله عنها انه قال: «ادعوا الى عبدالرحمن بن ابي بكر اكتب كتابا لأبي بكر لا يختلف عليه احد من بعدي، ثم قال لعائشة: دعيه معاذ

الله ان يختلف المؤمنون في ابي بكر، ويعتقد معظم المؤرخين ان مرض الرسول ﷺ حال دون اتمام نيته في تولية ابي بكر، والعهد اليه.

ولما توفي الرسول كان اول عمل مارسه المسلمون هو اختيار خليفة له، لأهمية رئاسة الدولة، حتى انهم قدموا ذلك على تجهيز الرسول ﷺ، اجتمع الانصار في سقيفة بني ساعده، واتفقوا على مبايعة سعد بن عبادة سيد الخزرج خليفة للمسلمين، لأنهم كانوا يرون انهم احق بالخلافة لسبقهم في الاسلام، ونصرتهم الرسول ﷺ وصحبه، وايوائهم لهم، وجهادهم في سبيل الله.

وعندما علم ابو بكر وعمر بالأمر توجها الى السقيفة واصطحبا معهما ابا عبيدة لدى لقائه في الطريق، وتبادل الحضور الرأي، فقال ابو بكر «ان الله جل تناؤه بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق، فدعا الى الاسلام، فأخذ الله بتواصينا وقلوبنا الى ما دعا اليه، فكنا معشر المهاجرين اول الناس اسلاما، والناس لنا فيه تبع... والله ما زلتم تؤثرون اخوانكم من المهاجرين، وانتم احق الناس ان لا يكون هذا الامر واختلافه على ايديكم، وابعد ان تجدوا اخوانكم على خير ساقه الله تعالى اليهم...

ثم تحدث الخباب بن منذر الانصاري، فاقترح ان يكون امير من المهاجرين وامير من الانصار، واستمر النقاش الى ان قال ابو بكر «وانما ادعوكم الى ابي عبيدة او عمر، وكلاهما رضيت لكم ولهذا الأمر، وكلاهما له اهل» فنهض عمر بن الخطاب ورشح ابا بكر، وحاول ابراز اهمية اختيار ابي بكر، كما حاول ابو بكر ابراز دور المهاجرين، وحصر الامارة بهم، فلم يقبل الانصار ذلك واحتدم النقاش، وتأزم الموقف فيما بعد بين الانصار انفسهم، فاستغل ابو بكر ذلك وعرض مبايعة عمر بن الخطاب[1]، حرصا على وحدة صف المسلمين، فرفض عمر، وقام بشير بن سعيد زعيم الاوس وبايع ابا بكر حتى لا يستأثر سعد بن عبادة بالخلافة، ثم بايعه عمر وابو عبيدة وتتابع المسلمون في مبايعة ابي بكر، وسميت هذه البيعة بالبيعة الخاصة، وفي اليوم التالي بايع المسلمون ابا بكر البيعة العامة في المسجد.

اسباب اختيار ابي بكر :

تشير الدلائل الى ان الرسول ﷺ كان يقدم الرسول في كثير من الأمور، ويفضله على غيره للاسباب التالية:

١ ـ هاجر ابو بكر مع الرسول ﷺ ، واختبئا معا في الغار عندما كانت قريش تبحث

عنهما «قال تعالى» ثاني اثنين اذ هما في الغار، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا.

٢ ـ استخلف الرسول ﷺ ابا بكر بالصلاة اثناء مرضه.

٣ ـ اغلاق ابواب المسجد الا باب ابي بكر، قال ﷺ، انظر هذه الابواب اللافظة في المسجد فسدوها، الا بيت ابي بكر، فاني لا اعلم احدا كان افضل في الصحبة عندي يدا منه.

٤ ـ التضحيات الكثيرة التي قام بها ابو بكر، فقد خرج بماله لربه، فاشترى سبعة عبيد لتخليصهم من عذاب قريش، واعتقهم، كما قدم جميع ماله لتجهيز جيش العسره.

سياسة ابي بكـــر :

انتهج ابو بكر سياسة العدل والحق، والمساواة بين المسلمين، وقد بين سياسته في خطبته بعد مبايعته، فقال «ايها الناس، فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان احسنت فاعينوني، وإن اسأت فقوموني.. والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، اطيعوني ما اطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

وعندما تولى الخلافة استشار الناس في تحديد راتب له بعد ان ترك التجارة لتدبير شؤون المسلمين، فقال له ابو عبيدة، افرض لك قوت رجل من المسلمين، واخيرا فرض المسلمون له خمسمائة درهم لقوته وكسوته وركوبة يركبها.

اعمال ابي بكر الصديـق :

١ ـ انفاذ جيش اسامة

كان النبي ﷺ قد اعد حملة بقيادة اسامة بن زيد للأخذ بثأر ابيه الذي قتل في معركة مؤته جنوب بلاد الشام، ولما توفي الرسول ﷺ راى اسامة ان ينـزل عن امرة الجيش تاركا للخليفة حرية الاختيار، وعندما تولى ابو بكر الخلافة سير جيش اسامة تنفيذا لأمر الرسول ﷺ، وقد اعترض بعض الصحابة ومن بينهم عمر بن الخطاب على تولية اسامة امارة الحملة لصغر سنـه (١٨ سنة)، واضـطراب الاحوال في الجـزيرة العربية اثر ارتداد بعض القبائل عن الاسلام. ولكن ابا بكر قال في حزم «لا ارد قضاء

قضى به الرسول ﷺ، ولوظننت ان السباع تتخطفني لانفذت جيش اسامة كما امر النبي».

ولما خرج الجيش، ودعه ابو بكر واوصاه بقوله «لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا، وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع، فدعوهم، وما فرغوا انفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتية فيها الوان الطعام، فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون اقواما قد فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله».

نزل اسامة بالمسلمين في مؤته لارهاب الروم ومنعهم من التفكير في قتال المسلمين، والقضاء على كل مقاومة في منطقة مؤته، وبعد عشرين يوما عاد الى المدينة منتصرا، فبعث انتصاره البشر في نفوس المسلمين، والثقة بقدرة الجيش الاسلامي، فكانت هذه الحملة مقدمة للفتوحات الاسلامية في الشام(*).

٢ ـ القضاء على المرشدين :

عظمت فجيعة المسلمين ومصيبتهم بوفاة الرسول ﷺ، وانفسح المجال امام المنافقين واعداء المسلمين اظهار نزعاتهم الانفصالية، اذ لم يصدق الناس خبر موت الرسول، وتسرب الشك الى نفوسهم، واستبعدوا ان يكون الشخص الذي احدث هذه الثورة في التاريخ بشرا يجوز عليه الموت، فامتنع البعض عن دفع الزكاة، ولم يبق مخلصا للاسلام ومطيعا لابي بكر الا سكان المدينة ومكة والطائف، ويعلل المؤرخون اسباب ارتداد العرب عن الاسلام الى الاسباب التالية:

١ ـ وفاة الرسول ﷺ :

ربط المسلمون بين شخص محمد ﷺ وبين ما حققه العرب من مكاسب دينية واجتماعية وسياسية، فقد أرسى فكرة الامة، والدولة الاسلامية، والمساواة، والتكافل والتضامن، كما نظم المجتمع، واخضع القبائل العربية لسكان الدولة الاسلامية بموجب معاهدات عقدت مع الرسول، فلما توفي الرسول ﷺ لم يصدق الجمهور نبأ وفاته حتى عمر بن الخطاب، فاعتبرت القبائل والناس ان الرابطة مع الدولة الاسلامية انتهت بوفاة الرسول ﷺ.

ب ـ العصبية القبليـــة :

لم تنس القبائل عصبياتها القبلية التي جهد الرسول ﷺ على اذابتها وتشكيل امة اسلامية اكدتها نصوص صحيفة المدينة. وليس ادل على ذلك من ردة الاسود العنسي في اليمن في عهد الرسول ﷺ، وانضمام بني حنيفة الى مسيلمة الكذاب مع علمهم بكذبه، ومحاولة بعض القبائل استرجاع ملكها كبني ربيعة في البحرين، عندما ملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر[٦] واعتبار القبائل الزكاة كجزية.

ج ـ حداثة الاسلام لدى بعض المسلمين :

لم يتمكن الاسلام من قلوب بعض المسلمين الذين اسلموا مقلدين، وبخاصة بعد غزوة تبوك، اذا ارسلت القبائل وفودها في السنة التاسعة للهجرة معلنة اسلامها.

د ـ عدم تعود العرب الخضوع للنظام :

صعب على بعض القبائل الخضوع للنظام الاسلامي الذي كبح شهوات العرب، وحرم عليهم الزنا، والخمر، والميسر، وقيد حرية الزواج والاخذ بالثار.

حـركة المرتدين :

كانت حركة الردة حركة سياسية تقوم على العصبية القبلية، واتخذت قناعاً زائفاً من الدين، واستهدفت الاستقلال والانفصـال عن سلطات المدينـة، وطالب المرتـدون باعفائهم من الزكاة لانهم اعتبروها نوعاً من الاتاوة.

ادعى كثير من الاشخاص بالنبوة، فقد ادعى الاسود العنسي في اليمن النبوة ولكن حركته اخمدت قبل وفاة الرسول، وتنبأ طليحة بن خويلد الاسدي في حياة الرسول ﷺ واستفحل أمره، وتبعته عرب اسد وغطفان وطيء[٧]، وتنبأت سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية، وتزوجت من مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في اليمامة.

وارتد بنو ربيعة في البحرين، وملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر، وارتد الحطم بن ضبيعة من قبيلة بكر بن وائل، ونـزل الى القطيف، حتى انتشـرت حركـة المـرتدين معـظم الجزيـرة العربيـة، ولم يبق الا المدينـة ومكة الطائف مـواليا للدولة الاسلامية.

هزت حركة المرتدين الدولة الاسلامية، حتى أشار عمر بن الخطاب على الخليفة ابي بكر بعدم محاربة المرتدين ماداموا يدينون بوحدانية الله، عملا بقول الرسول ﷺ

«امرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فمن قالها فقد عظم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله»[٨]

القضاء على الحركة :

وقف ابو بكر بحزم، وحارب المرتدين، وقال «والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على منعها»[٩].

كلف ابو بكر «علي بن أبي طالب بالدفاع عن الطرق الجبلية الى المدينة، وتمكن من صد حملة غطفان وبني اسد على المدينة. ثم عقد ابو بكر الالوية لاحد عشر اميراً، وهم:

١ ـ خالد بن الوليد وكلفه بمحاربة طليحة بن خويلد في بزاخة، ومالك بن نويره بالبطاح.
٢ ـ عكرمة بن ابي جهل، وأمره بالسير نحو مسيلمة في اليمامة.
٣ ـ المهاجر بن ابي امية: وكانت وجهته جنوب الاسود العنسي ثم كنده بحضرموت.
٤ ـ خالد بن سعيد بن العاص: سيره الى مشارف اشام.
٥ ـ حذيفة بن محصن الغلفاني: وعهد اليه بأهل دبا.
٦ ـ عمرو بن العاص: ووجهته قضاعة في شمال الحجاز.
٧ ـ عرفجة بن هرثمة: وعهد اليه بالسير الى مهره.
٨ ـ شرحبيل بن حسنة: وكلفه بمساعدة عكرمة لمقاتلة مسيلمة.
٩ ـ طريفة بن حاجز: وسيره الى بني سليم من هوازن.
١٠ـ سويد بن مقرن: واتجه الى تهامة اليمن.
١١ـ العلاء بن الحضرمي: وكلف بمحاربة المرتدين في البحرين.

نجحت بعوث ابي بكر في قمع حركة الردة، وكان خالد بن الوليد أكثر القادة نجاحاً، فقد قضى على جموع طلحة، واخضع غطفان وسليم واسد، كما هزم مالك بن نويرة، ثم ساعد شرحبيل وعكرمة في الحرب ضد مسيلمة، وعندما اشتبك خالد مع مسيلمة اشتد القتال بين الفريقين، وتبادلا النصر والهزيمة، الا أن المسلمين حصروا بني حنيفة بقيادة مسيلمة الى حديقة سميت حديقة الموت لكثرة من قتل بها، ويقال ان بني حنيفة خسروا ٢١ الف قتيل، في حين استشهد حوالي ١٢٠٠، وبمقتل مسيلمة ضعف المرتدون، وسرعان ما قضي عليهم، ونتج عن حروب الردة اعادة وحدة المسلمين الدينية والسياسية، وتفكير ابي بكر في جمع القرآن خشية ضياعه لكثرة من قتل من حفاظه.

نتائج حروب الردة :

أ ـ تدعمت خلافة ابي بكر، وعادت وحدة الامة الاسلامية.

ب ـ طهرت نفوذ المسلمين من النزعات الجاهلية، والشرك، وسدت الطريق امام المتنبئين.

جـ ـ أعادت القوة والثقة الى نفوس المسلمين بصحة الرسالة المحمدية، وشعورهم بواجب نشر الدين الاسلامي.

د ـ مشاركة المسلمين في الجهاد ولا سيما المرتدين تفكيرا لهم عن ما اقترفوا من ذنب لارتدادهم عن الاسلام.

٣ ـ الفتوحات الاسلامية :

اختلف المؤرخون في تعليل الفتوحات الاسلامية، وتعليل دوافعها، ويرجح البعض اسبابها الى نشر الدين، في حين يعتبر المستشرقون دوافعها باسباب اقتصادية، وفيما يلي اهم دوافع الفتوحات الاسلامية.

أ ـ الجهاد ونشر الدين :

ارسل الله محمد ﷺ لنشر الاسلام، فارسل البعوث والكتب الى الملوك والامراء يدعوهم الى الايمان بالرسالة الاسلامية، ولذلك قامت معركة مؤتة عندما لم يستجب البيزنطيون لدعوة الاسلام، وتابع ابو بكر رسالة محمد في نشر الدين الاسلامي لقوله تعالى، «يا أيها النبي أنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراء سورة الاحزاب آية ٤٥.

وما ان انتهت حروب الردة حتى بعث ابو بكر بالكتائب الاسلامية لنشر الدين الاسلامي، ولكن المسلمين لم يندفعوا الى اراضي الدولتين البيزنطية والفارسية الا دفاعاً عن النفس، عندما علموا بالحشود على حدود الدولة الاسلامية، ولم يكن الجهاد هو السبيل الوحيد لنشر الاسلام، لقوله تعالى «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوث، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم» سورة البقرة آية ٢٥٦.

ب ـ بناء الجبهة الداخلية :

اهتم المسلمون بتقوية الوحدة الوطنية، وابعاد المسلمين عن المشاحنات الداخلية،

او التفكير في حروب الردة، وذلك بدعم وحدة الامة الاسلامية في مواجهة الاخطار الخارجية.

جـ - الاوضاع الاقتصادية :

يدعي المستشرقون ان الفتوحات الاسلامية كان هدفها الاستيلاء على خيرات البيزنطيين والفرس، وان الغنائم هي الهدف الاساسي لهذه الحروب، وان الفتوحات الاسلامية ما هي الا موجة سامية الى بلاد الهلال الخصيب، والواقع ان هذا القول لا صحة له، لان الاسلام هذب نفسية المسلمين، كما ان سكان العراق والشام كانوا من العرب الذين يحكمون من قبل دولتي الفرس وبيزنطة غير العربيتين.

د - تردي احوال دولتي فارس وبيزنطة :

اعترى الدولة الفارسية ضعف شامل، اذ تعددت الانقسامات الدينية، فكان اصحاب الدين الزرادشتي الرسمي في صراع من الذين يتبعون الديانات الاخرى، كمذهب المانوية، والديانة النصرانية بمذهبيها النسطوري واليعقوبي، والديانة اليهودية، والصابئة.

كما ان نظام الحكم الفارسي كان منعزلا، ويعتمد في حكمه على الظلم والاستبداد، والجواسيس، فسخط الناس وكرهوا حكامهم، وقد ادى ذلك الى اضطراب الدولة، وبخاصة لمحاربة العرب لها في معركة ذي قار سنة ٦١٠ هـ .

أما دولة بيزنطة فكانت في وضع سيء، فالنزاع الديني بلغ اشده حول طبيعة السيد المسيح، أهي الهية ام بشرية، ادى الى انعدام الوحدة الوطنية، وتمرد الجند، وضعف الحكام.

ومما ساعد في ضعف الدولتين الحروب التي خاضتها الدولتين فيما بينها ردحاً من الزمن.

فتح العراق :

استغلت القبائل العربية غرب نهر الفرات ضعف دولة الفرس، وتولى بوران بنت كسرى الملك، واخذت تغير على تخوم ارض فارس بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني. ولما شعر بازدياد قوة الفرس استنجد بالمسلمين، فارسل له ابو بكر جيشا بقيادة خالد بن الوليد وامره بطاعته.

القرآن مرتين على جبريل، وشهد زيد بن ثابت المرة الاخيرة. وهكذا كان القرآن كاملا ومرتباً في آياته وسوره قبل وفاة الرسول ﷺ .

وعندما تولى ابو بكر الخلافة، وارتدت بعض القبائل عن الاسلام، وامتنعت عن دفع الزكاة، ارسل ابو بكر القوات المسلحة لاعادتهم الى حظيرة الاسلام، فمات عدد كبير من حفاظ القرآن في معركة اليمامة، فاقترح عمر ابن الخطاب على الخليفة جمع القرآن.

كلف الخليفة ابو بكر زيد بن ثابت جمع القرآن لانه كان يحفظ القرآن، واحد كتبة الوحي، وعندما بدأ زيد بجمعه اتبع منهجاً قويماً في تدوين القرآن، وهو ان لا يقبل شيئاً من القرآن الا بشاهدين عدليين، واخذ يجمع القرآن، من الاشياء التي كتب عليها، ولا يدون شيئاً الا اذا تطابق مع حفظه وبشهادة عدلين، الا اواخر براءه، فانه لم يجدها مكتوبة الا عند ابي خزيمة الانصاري وحده، وقد اعتمد في اثبات الآيتين على ابي خزيمة، وعمر بن الخطاب وعليه نفسه.

فلما اتم زيد بن ثابت عمله، جمع الصحف التي كتب عليها القرآن، واودعها عند ابي بكر. فكان عمل ابي بكر بمثابة حفظ الوثائق الهامة بتعبير عصرنا. وقد اكد ذلك ابو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبي في كتاب فهم السنن «كتابة القرآن ليست محدثة فانه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه مفرقاً في الرقاع، والاكتاف، والعسب، وانما امر ابو بكر بنسخها من مكان الى مكان، وكان ذلك بمنزله اوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع وربطها بخيط، حتى لا يضيع منها شيء»[١١].

٢ ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه

٦٣٤/١٣ ـ ٦٤٤/٢٣

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، وينتهي نسبه الى كعب بن لؤي، ويكنى ابا حفص، ويشترك مع الرسول ﷺ في الجد السابع، ولد بمكة قبل حرب الفجار الاعظم باربع سنين[١٢]، رعى الغنم في صغره، ثم احترف التجارة، نشأ نشأة عالية، فصيح اللسان، شديد البأس، عزيز الجانب، وكان في الجاهلية سفيراً لقريش مع القبائل الاخرى.

اسلم وهو في السادسة والعشرين من عمره، وكان لا يخفي اسلامه، مع انه كان من اشد المعارضين للاسلام، بل انه ضرب زوج اخته فاطمة عندما اسلمت وزوجها سعيد بن زيد.

اصبح عمر من اشد المناصرين للرسول ﷺ والاسلام، ولقبه الرسول بالفاروق، لان الله فرق بين الحق والباطل به، وقال عنه الرسول ﷺ لو كان بعدي نبي لكان عمر، وكان عمر بمثابة وزير لابي بكر، فساعده في حروب الردة، وفي جمع القرآن، وفي الفصل في القضايا.

بيعـــة عمـــر :

عندما احس ابـو بكر بـدنو اجله اراد أن يتم انتخـاب خليفة حتى لا يختلف المسلمون في وقت هم احوج الناس الى الوحدة، اذ كانت جيوش المسلمين تحارب الدولتين الاعظم فارس وبيزنطة.

بدأ ابو بكر باجراء استشاراته لاختيار الخليفة، ودعا اليه اهل الحـل والعقد، وكبار الصحابة ليتحسس رغبة المسلمين، فاستدعى عبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، واسيد بن الحضير، وحصر رغبة الناس في عمر وعلي، الا ان عمر يريد الامر فيرى في طريقه عقبة فيدور اليه، اما الثاني فيرى الاستقامة ولا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا الى الشدة اميل منه الى اللين[١٣].

وعندما انهى ابو بكر مشاوراته، دعا عثمان بن عفان واملى عليه «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به ابو بكر ابن قحافة خليفة رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة، وفي الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن الفاجر، انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فان بر وعدل فذلك علمي به، ورأيي فيه، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير اردت. ولكل امرىء ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون» الشعراء ٢٢٧

اخبر ابو بكر الناس بانه اختار عمر خليفة من بعده، فقال الناس «سمعا وطاعة»

ولما ولي عمر الخلافة صعد المنبر، وقال: انما مثل العرب مثل جمل انف (له حلقة يجرفها لاخضاعه) اتبع قائده، فلينتظر قـائده حيث يقـوده، واما أنـا فورب الكعبـة لاحملنهم على الطريق»[١٤].

صفاتـه وعظمتـه :

اجمع المؤرخون على ان عمر بن الخطاب كان من اعظم الساسة، فقد اقام الدولة على اسس متينة، وشيد صرحها عالياً، وقد اتصف عمر بانـه كان شـديداً في الحق،

مجاهراً برأيه، مدافعاً عن الاسلام، قاسياً على المشركين، وعندما توفي الرسول ﷺ شهر سيفه وهدد بقتل كل من قال ان محمداً قد مات.

كان عمر حريصا على كرامة المسلمين، يحميهم، وينصفهم من عدوان الولاة، فكان يفتح صدره لاية شكاية في احد عماله. وكان حريصا على اموال المسلمين ومصالحهم، فقد حبس ابا سفيان بن حرب حتى ردت زوجته هند قرضاً اخذته من بيت مال المسلمين، كما كان يدهن ابل الصدقة بالقار حفاظاً عليها.

وكان زاهداً، متواضعاً، متقشفاً رغم ما عرف به من شدة، وكان بسيطا في لباسه، وحدث ان اسر الهرمزان قائد الفرس، فجيء به الى المدينة، وسيق في ابهته الى عمر في المسجد، فتعجب عندما علم ان ذلك الرجل هو الخليفة. وقيل ان قيصراً ارسل رسولا لعمر، فلما دخل المدينة، سأل الناس عن ملكهم، فقالوا مالنا ملك، بل لنا امير، قد خرج الى ظاهر المدينة، فجد في طلبه، فوجده نائما على الارض في الشمس، وقد تصبب العرق من جبينه حتى بل الارض، فدهش رسول قيصر.

وكان عالما بالقرآن شديد التعلق به، ورعاً يسأل عن التصرفات ليدرك حكمتها، فقد سأل الرسول ﷺ عن سبب قبوله صلح الحديبية.

حكم عشر سنوات وستة اشهر وتوفي سنة ٢٣ هـ ، اذ بينما كان يؤم الناس في المسجد طعنه غلام فارسي اسمه فيروز ابو لؤلؤة مدعياً انه لم ينصفه من سيده المغيرة بن شعبة، والحقيقة ان ابا لؤلؤة تآمر على حياة عمر مع الهرمزان الفارسي، وكعب الاحبار اليهودي، وجفينة النصراني انتقاماً منه لانه رفع شأن الاسلام، وقضى على دولة الفرس.

واتفق الجميع على فضل عمر واحقيته بالخلافة، ومع ان البعض تخوف من قسوة عمر، الا أن ابا بكر بين ان عمر انما يقسو لليّنه، وانه لو تولى لكان موقفه اقرب الى اللين والرحمة.

اعمال عمر بن الخطاب :

يعتبر عمر بن الخطاب واضع اسس النظم الادارية في الدولة الاسلامية، فقد نظم الدولة، واسس ديواني الجند والخراج، كما قسم الدولة الى عدد من الولايات، وتابع سياسة نشر الاسلام والجهاد.

تتمة الفتوحات الاسلامية :

تابع المسلمون فتوحاتهم في مختلف الجبهات ولا سيما :

١ ـ جبهة الفرس: اعاد الفرس تنظيم قواتهم، واعدوا جيشا كبيرا لمواجهة المسلمين، ولما احس المثنى بتفوق قوات الفرس استنجد طلب المدد، ولما ولى عمر الخلافة ارسل نجدة الى العراق، وقد حدثت معارك عدة بين الطرفين ادت الى القضاء على الامبراطورية الفارسية، ومن هذه المعارك.

موقعة الجسر: وقعت سنة ١٣هـ/ ٦٣٤ بعد وصول المدد الاسلامي الى العراق بقيادة ابو عبيد بن عمر الثقفي، وقد حاول المسلمون الالتفاف حول جيش الفرس، ودخول الجسر لمواجهة الفرس، الا ان النصر كان حليف الفرس، واستشهد ابو عبيد، فتراجع المثنى الى الغرب.

معركة البويب: اعاد المثنى بن حارثة تنظيم المسلمين، والتقى والقائد الفارسي مهران على نهر الفرات فانتصر المسلمون انتصاراً باهراً، واخذوا بثأر هزيمتهم في الجسر.

معركة القادسية: سنة ١٥ هـ/٦٣٧م: عهد عمر بن الخطاب الى سعد ابن ابي وقاص باتمام فتح فارس، فوصل القادسية، وكان معه ثمانية الاف مقاتل في حين كان الفرس ثلاثين الفا، ارسل سعد رسوله الى قائد الفرس رستم يدعوه الى الاسلام او دفع الجزية او الاحتكام الى السيف. اغتر رستم بقوته قائلا «والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم اجمعين» فاجابه المغيرة بن شعبة «لا حول ولا قوة الا بالله وانصرف عنه».

استمرت المعركة ثلاثة ايام انتهت بهزيمة الفرس، ومقتل رستم وعدد كبير من جنوده، وفر عشرات الالاف من الجنود من الفرس.

معركة جلولاء: تبع سعد بن ابي وقاص الفرس الى جلولاء سنة ١٦هـ/٦٣٧م واوقع بهم، واسر احدى بنات كسرى، ودخل الاسلام عدد كبير من الفرس، وكتب سعد الى الخليفة عمر يبشره بالفتح، اتخذ سعد الكوفة مقراً للمسلمين وبنى فيها المسجد الجامع.

معركة المدائن: توغل سعد في بلاد العراق، فوصل الى عاصمة الفرس طيسفون، فحاصرها سنة ١٦هـ/٦٣٧م مدة شهرين، واستولى عليها اثر ذلك، واطلق عليها اسم «المدائن»، واتخذها قاعدة للاعمال الحربية.

معركة نهاوند: حاول كسرى الفرس يزدجرد جمع فلول قواته، فبلغت ستين الف، والتقى المسلمين في معركة نهاوند سنة ٢١هـ/٦٤٢، وكان القائد المسلم النعمان بن مقرن، فاستشهد قبل نهاية المعركة، فتولى القيادة حذيفة بن اليمان، وكتب الله النصر للمسلمين، وسميت المعركة فتح الفتوح، وفر يزدجرد الى الحدود الشرقية وقتل في خراسان سنة ٣١ في خلافة عثمان بن عفان.

ب ـ فتح بلاد الشام :

نجح خالد بن الوليد في الوصول الى بلاد الشام وتمكن من فتح بصرى، واتفق القادة المسلمون على ملاقاة العدو البيزنطي في معركة فاصلة في اليرموك.

جمع هرقل قوات قوامها مائة الف بقيادة ماهان الارمني، ودعمها جبلة بن الايهم ملك الغساسنة بستين الف، بينما كان الجيش الاسلامي حوالي ٢٤ الف مقاتلا، وتمركز في الواقوصة. رتب خالد بن الوليد الجيش، فوضع ابا عبيدة في القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن ابي سفيان على الميسرة، ثم دارت المعركة، وانتهت بانتصار المسلمين، وهرب هرقل الى القسطنطينية، بعد أن ودع سوريا بقوله: «عليك يا سوريا السلام، ونعم البلد».

وبينما كان المسلمون يقاتلون في اليرموك توفي ابو بكر وتولى عمر الخلافة، فأمر بتعيين ابي عبيدة قائدا عاماً بدلا من خالد بن الوليد حتى لا يفتتن الناس بعبقرية خالد العسكرية، ويعتبرونه سبب الانتصارات المختلفة، فانضوى خالد في صفوف الجيش الاسلامي وقال «ما انا الذي اعصى امير المؤمنين».

بعد ذلك استولى قسم من الجيش الاسلامي بقيادة ابي عبيدة وخالد بن الوليد على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب، بعد ان فتحت دمشق، والانتصار في فحل.

ثم انتصر المسلمون عند اجنادين، واخضعوا عسقلان ونابلس ويافا والرملة وغزة وبيروت، ثم اتجه عمرو بن العاص الى بيت المقدس، وحاصرها اربعة اشهر، واخيرا تم الاتفاق على تسليمها الى الخليفة عمر سنة ١٦هـ/٦٣٧م. وحضر عمر الى بيت المقدس وتسلمها، واعطى عهد الأمان الى اهلها، وسلمت قيسارية بعد هرب قسطنطين بن هرقل لعمرو بن العاص.

وبذلك انتهى النفوذ البيزنطي في بلاد الشام، وعادت بلاد الشام الى الحظيرة العربية بعد ان روى المسلمون الارض بدماء ٢٥ الف شهيداً في الحرب.

طاعـون عمـواس :

تم فتح بلاد الشام سنة ١٧هـ ثم حدث في العام التالي ان انتشر وباء الطاعون بصورة مريعة في الشام، وعرف هذا الطاعون بطاعون عمواس نسبة الى قرية عمواس، قرب مدينة الرملة. وقد ادى هذا الوباء الى وفـاة ٢٥ الف مسلم[١٥]، وتوفي في هـذا الطاعون بعض كبار الصحابة منهم ابو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، والفضل بن العباس بن عبدالمطلب، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن ابي سفيان.

وكان عمر بن الخطاب قد هم بدخول دمشق ولكنه عاد الى المدينة عند سماعه بالمرض، لقوله ﷺ «اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد، فلا تقدموا عليه، واذا وقع وانتم فيه فلا تخرجوا منه».

فتـــح الجزيـرة :

بعث ابو عبيدة القائد عياض بن غنم بخمسة الاف مقاتل لفتح الجزيرة، فتوجه الى منطقة الرها فصالحه اهلها سنة ١٨هـ ، ثم فتح نصيبين سنة ١٩هـ/ ٦٣٩م وسنجار وقرى الفرات، وآمد والرقة، وما لبث ان عاد الى حمص لينقل الى الرفيق الاعلى، فقام عمير بن سعد الانصاري باتمام مهمته، ففتح عين الوردة سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م، وفي السنة التالية فتح الموصل.

وهكذا اتصلت الاراضي التي فتحها المسلمون في بلاد الشام مع ما فتحه المسلمون في العراق، وقد فتح المسلمون هذه البلاد بسهولة لان معظم سكانها كانوا من الاراميين الذين كانوا مضطهدين من قبل الكنيسة، فرغبوا في التخلص من حكم الروم.

ج ـ فتح مصر وشمال افريقيا :

اتجه عمر بن الخطاب الى الجابية بعد تسلمه مدينة القدس، وهناك حاول عمرو بن العاص اقناع الخليفة في فتح مصر، فتردد الخليفة عمر لانتشار القوات الاسلامية في الشام والجزيرة وفارس، الا انه اذن لعمرو بن العاص بفتح مصر بقوة قوامها اربعة الاف جندي.

استولى عمرو على العريش سنة ١٨هـ /٦٣٨م، ثم فتح الفرما بعد حصار شهرين سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، واستسلمت بعد ذلك بلبيس في الدلتا، وتقدم نحو بابليون، وطلب النجدة لتزايد قوة البيزنطيين، فارسل له الخليفة ٤٠٠٠ مقاتل بقيادة الزبير بن العوام، وكتب الى عمرو بن العاص «امددتك باربعة الاف، فيهم رجال الواحد منهم بالف رجل».

بلغ عدد الجيش الاسلامي عشرة الاف مقاتل في حين كان عدد البيزنطيين ٢٠ الف جندي بيزنطي بالاضافة الى حامية حصن بابليون التي يبلغ عددها خمسة الاف محارب.

وأخيرا وقعت المعركة الفاصلة في عين شمس سنة ٢٤هـ/ ٦٤٠م حيث تمزق فيها جيش العدو، وهرب القائد البيزنطي ثيودورس الى الاسكندرية، واعتصم المقوقس في الحصن، ولما طال الحصار الاسلامي، اضطر المقوقس الى مفاوضة المسلمين، وكم كان غيظه عظيما حينما استقبل الوفد المسلم برئاسة عبد حبشي «هو عبادة بن الصامت» واضطر الى قبول دفع الجزية، غير ان هرقل رفض الصلح، فاستمر المسلمون في محاصرة الحصن، الى ان فتحوه بعد حصار سبعة اشهر سنة ٦٤١م.

فتـــح الاسكندريـــة :

اتجه المسلمون شطر الاسكندرية بعد فتح حصن نابليون فحاصروها، فارسل الامبراطور البيزنطي الى عامله المقوقس ليفاوض المسلمين، فعقد صلح الاسكندرسة عام ٢٠هـ/ ٦٤١م وجاء فيه : ـ

- يدفع الرومان جزية مقدارها ديناران عن كل رجل، وضريبة الخراج على الاراضي.
- تجلوا القوات البيزنطية من الاسكندرية خلال احد عشر شهرا.
- الا يتدخل المسلمون في امور المسلمين، والا يتعرضوا للكنائس، وبقاء اليهود بالاسكندرية.
- ان يوضع لدى المسلمين ١٥٠ جنديا بيزنطيا، و ٥٠ مدنيا الى ان يتم تنفيذ هذه المعاهدة.

وقد ساهم القبط في تخليص مصر من ظلم الرومان، فقدموا المؤن وعلف الحيوانات للمسلمين طيلة الحرب.

فتـــح برقـــة وافريقيـــة :

بادر عمرو بن العاص بفتح برقة وطرابلس تأمينا لحدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي، ففتح برقة عام ٢٣هـ/ ٦٤٣م، ثم وجه جيشا بقيادة عقبة بن نافع الى الواحات، في حين اندفع عمرو بن العاص بقوة فتحت فزان، ثم سرت، ثم فتح طرابلس ثم واحه ودان سنة ٢٢هـ /٦٤٣م، وأخيرا عاد عمرو بن العاص بعد ان اقام قائده بن نافع على هذه البلاد (برقة)، يدعو الى الاسلام.

واليونانية، لان العرب كانوا يتعاملون بها في تجارتهم مع الفرس والبيزنطيين. ولكن عمر حرص على اضافة بعض النقوش مثل «الحمد لله، محمد رسول الله» ووحد الدرهم فجعله ستة دوانق.

ج - التنظيمات العسكريـــة:

قصر الخليفة عمر الجندية على العرب وحدهم دون اهل الذمة، فمنع المحاربين العرب من امتلاك الاراضي في المناطق المفتوحة خشية ان يفتر حماسهم الحربي، فاقامهم في معسكرات منعزلة عن العمران مستهدفا عدم اختلاطهم بالشعوب الجديدة.

وعمد الخليفة عمر الى تاسيس الامصار في الاراضي المفتوحة، فاقـام القواعـد الحربية، فانشأ مدينة البصرة، وقد اختطها عتبة بن مروان سنة ١٤هـ، وسميت بهذا الاسم لكثرة حجارتها السود والحصى. كما أمر الخليفة عمر القائد سعد بن ابي وقاص بان يتخذ للمسلمين دار هجرة، وان لا يجعل بينه وبينهم بحرا، فاختط مدينة الكوفة سنة ١٧هـ، وسميت الكوفة لاختلاط الحصباء والرمل بها، او من تكوف اي تكوم الرمـل. واسس عمرو بن العاص سنة ٢١ الفسطاط في مكان حصين بين جبل المقطم وحصن بابليون.

كما اهتم الخليفة بتحصين السواحل، واقامة الحرس على موانئها، وقام معاوية ببناء اسطول اسلامي ايام الخليفة عمر، ولكن الخليفة لم يأذن لمعاوية بغزو جزيـرة ارواد.

د - الامارة عـلى البلدان :

قسم الخليفة عمر البلاد الى اقسام ادارية كبيرة عندما اتسعت الدولة ليسهل حكمها، والاشراف على موارد ثروتها، فكانت الولايات التالية: ولاية الاهواز والبحرين، ولاية سجستان ومكران وكرمان، ولاية طبرستان، خراسان، وجعل بلاد فـارس ثلاث ولايات، وبلاد العراق الى الكوفة، والبصرة وقسم بلاد الشام الى ولايتي حمص، ودمشق، وجعل فلسطين ولاية قائمة بذاتها، اما افريقيا فقسمت الى ولايات حصر العليا وحصر السفلى، وغرب حصر وصحراء ليبيا.

وعين عمر على هذه الولايات ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة، وكان عمر يسأل الرعية عن احوال امرائهم، ويحاسبهم اذا اخطأوا، وكان الوالي يقوم بامامة النـاس، وقيادة الجند، ويشرف على جمع المال.